النماذج والأفراد فى الأدب

للأستاذ عباس محمود العقاد

أشرت فى مقالى السابق إلى رأى « لونارد وولف » فى كتابه « بعد الطوفان » وخلاصته أن الشعراء والقاصين كانوا يرسمون للناس قبل القرن السابع عشر نماذج من طوائف وجماعات، أما بعد القرن السابع عشر وانتشار الديمقراطية فقد أصبح أبطال القصص « أفراداً » مستقلة قلما تتكرر فى غمار السواد. وعلاقة الديمقراطية بهذا التغير الواضح أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد، أو حين كان النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان

أشرت إلى هذا الرأى وقلت إننى سأعود إليه ببعض الشرح والتعليق فى مقال آخر؛ وأظن أن تاريخ الآداب لا يفهم حق فهمه إلا بتجلية هذا الرأى وأمثاله والوقوف على مبلغ ما فيها من الحقيقة والتمييز بين الأدب القديم والأدب الحديث، لأن تاريخ الآداب إن هو إلا المعالم التى نميز بها عصراً من عصر وطريقة من طريقة وموضوعاً من موضوع، سواء أكان هذا الموضوع بطلاً موصوفاً فى رواية أو قصيدة، أم كان عاطفة إنسانية يصورها الراوى والشاعر حسبما يراه

* * *

لقد كان اليونان يصورون الإنسان لأنه يستحق النظر إليه ويقولون: إذا كنت لا تجد من ينظر إليك فكيف تجد من يصورك؟ وعلى هذا كان تصويرهم مقصوراً على الجميل والنبيل والرائع والمشهور، وهى الصورة التى تسترعى الأنظار وتشغل الخواطر وتفعم النفوس بالفتنة والإعجاب

كان ذلك شعارهم فى عالم التصوير الفنى، فهل تغير اليوم هذا الشعار؟

لا. لم يتغير، ولم يزل من دأب القاصين والشعراء والرسامين والمثالين والكتاب المسرحيين أن يصوروا ما يستحق النظر، وأن يقولوا كما كان اليونان الأقدمون يقولون: إذا كنت لا تجد من ينظر إليك فكيف تجد من يصورك؟!

لم يتغير شعار الفن القديم، وإنما تغير الذين يستحقون النظر فأصبح الدميم والسقيم والوضيع والخامل مستحقين أن ينظر إليهم الناظر، وأن يبحث فيهم الباحث، وأن يتناولهم التشريح، وأن يتعلق بمعرفتهم عرفان أخلاق الإنسان وأطوار الجماعات وأدواء الأجسام وآفات الضمائر، وأصبح المعمل المنبوذون أهلاً للدرس والفحص والمراقبة منذ أصبحت جثة الميت أهلا للعناية بها ومراقبة الأدواء والأدوية فيها. فإذا قال القائل الحديث: كيف تجد من يصورك وأنت لا تجد من ينظر إليك؟ فهو معبر عن رأى الأقدمين والمحدثين على حد سواء؛ ولكنه إذا سأل: من الذى يستحق النظر أو من الذى يستحق التصوير؟ فهنا يظهر الخلاف ويتبين الفارق بين شعار الفن القديم وشعار الفن الحديث

وقد أصاب « لونارد وولف » حين قرن بين هذا التغيير وبين الديمقراطية، وأصاب أكثر من ذلك حين قال: إن الأديان فتحت باب هذا التغيير حين عرّفت الانسان أن له روحاً مستقلاً بحسابه، منفرداً بثوابه وعقابه، معدوداً أمام الله خلقاً لا يفنى فى غمار الخليقة، ولا يزال له ميزانه وكتاب حسناته وسيئاته لا يختلط بميزان غيره ولا بكتابه

وتلك فى الحقيقة هى أول خطوة خطاها الإنسان فى إظهار « الفرد » وتمييزه من غمار الجنس كله أو الطائفة برمتها

فمنذ أصبح الإنسان « فرداً » معزولاً فى حكم الدين، لا اختلاط بين حسناته وسيئاته وبين حسنات الآخرين وسيئاتهم، ولا التباس بين ثوابه وثوابهم وعقابه وعقابهم؛ هنالك أصبحت كل نفس بما كسبت رهينة، وأصبحت كل نفس حقيقة بالمحاسبة والإحصاء والمراقبة، ورسخت جذور الديمقراطية فى التاريخ فلم يبق إلا أن تظهر لها على وجه الأرض فروع وأوراق وثمار

وغاية الفرق بين الفردية الدينية والفردية الديمقراطية أن حساب الدين إنما يكون فى الآخرة فلا ضرورة لفرز الأفراد فى هذا العالم الأرضى ولا لتمييزهم بالخصائص الدنيوية وما يتصل بها من الخلائق الاجتماعية والملامح الفكرية والأطوار السياسية

أما الديمقراطية فلا مناص فيها من التمييز بهذه المزايا ولا من

فرز الناس على حسب ما يتراءى بينهم من فوارق الدنيا وعلامات الحياة وشياتها . ومن ثم بدأ التحليل النفسي بعد ظهور الديمقراطية ولم يبدأ تواً بعد ظهور الأديان ؛ وكان من دواعي ظهوره مع الديمقراطية عدا ما تقدم أنها جاءت على أثر النهضة العلمية وعلى أثر انتشار العلوم والمباحث في أطوار الناس مجتمعين ومنفردين ، فتيسر التحليل النفسي الذي لم يكن ميسوراً قبل ذلك في صدر المسيحية أو في صدر الإسلام ، وأمكن التفريق بين الأفراد في الطائفة الواحدة والجنس الواحد ، لأنهم من جهة قد ملكوا الحرية التي يبرزون بها خصائصهم ونزواتهم ، وينطلقون بها مع أهوائهم ورغباتهم ؛ ومن جهة أخرى قد وجدوا من يدرسهم ويطبق عليهم قواعد العلوم ويصوب إليهم مجاهر النقد والملاحظة . ولم تكن أسباب ذلك كله مهيأة عند ما جاءت الأديان بدعوة الفردية الدينية وجعلت كل إنسان « روحاً » له حسابه وكتابه وليس بالقطرة المنسية في الغمار

على أن العبقريات الرفيعة قد سبقت نهضة الديمقراطية إلى تمييز « الخصائص الفردية » على اختلافها ولو كانت في أوضع النفوس وأهونها وأبشع مياسمها . فكان المصور العظيم « ليوناردو دافنشي » يتعقب المشوهين والمسخاء في الطرقات ويغريهم بالخمر والمال ، حتى يتكشفوا عن سرائر نفوسهم ، ويخرجوا من حجاز الكآفة والمهابة ، فيرقص منهم من يرقص ، ويهذي منهم من يهذي ، ويقهقه منهم من يقهقه ؛ وتزداد بذلك بشاعة وجوههم وفسولة طبائعهم ، وهو ناظر إليهم يترقب لمحة عارضة فيسجلها بقلمه دون أن يقطع عليهم مجانتهم وخلاعتهم . وكان شكسبير يصور عشرات النساء وكل واحدة منهن امرأة غير سائر بنات حواء في حبها وبغضها وحيلتها وكيدها وكلامها وسلوكها ، حتى لامشابهة بين صاحبة هملت وصاحبة عطيل وصاحبة مكبث وبنات الملك لير إلا في صفة الأنوثة التي تشمل جميع النساء

أما من عدا هذه الطبقة من العبقريين فأبطالهم كما قال « لونارد وولف » نماذج يشترك في صفاتها الثبات والألوف ، فحسن التاجر البصري مثلاً هو تاجر كسائر التجار ، وهو عنوان طائفة وليس بفرد من الأفراد ، وكذلك عجيب وغريب وغيرهما من أبطال ألف ليلة وليلة ، هم نماذج للفرسان والأمراء ، وللأخيار والأشرار وللشيوخ والشبان ، لاتحس فرقاً بين أحدهم وبين غيره من أبناء قبيله وعامة أقرانه وزملائه ، ولا مشابهة بينهم وبين أبطال القصص الحديثة — ولا سيما التحليلية منها — حيث ترى البطل فرداً ليس بالمتكرر وليس بالشائع بين أبناء صنعته وإخوان طرازه ، وإن شابههم في صفة من الصفات فبمقدار ما يستدعيه إتفاق الصناعة واتفاق البيئة دون أن يفنى معهم في الغمار أو يغيب وراء العنوان

* * *

يلوح لي أن هذا الرأي الذي أجملته وتصرفت في تفسيره بما أملى المؤلف من تبعاته — هو على الجملة رأي صواب لاغنى عنه في نقد الفنون والآداب

ولكني أفضل أن أقول إن التحليل النفسي لم يكن نتيجة الديمقراطية وإنما كانت الديمقراطية والتحليل النفسي معاً نتيجة شيء آخر : هو انتهاء الكشوف الظاهرة وابتداء الكشوف الباطنة ، أو هو انتهاء السياحات الجغرافية وابتداء السياحات النفسية الانسانية

ففي الوقت الذي ظهرت فيه القصة التحليلية كان الانسان قد فرغ من كشف الأرض ووصل إلى أقصى مجاهل العالم المعمور

ولم تكن هناك قصة تحليلية قبل كشف الهند وكشف أمريكا وكشف المجاهل الاسيوية والأفريقية

فلما كشفت كل هذه الأصقاع ووقف حب الاستطلاع والتماس الغرائب ، من هذه الناحية ، بدأ الالتفات إلى دخائل النفس وأخذت غرائب الأخلاق في الظهور ، وأخذت العناية بها والتوفر على درسها في التقدم والشيوع

لقد كان معظم الرواية القديمة رواية رحلات ورحالين وكان الإنسان مشغولا بكشف « المكان » الذي يحيط به ويغريه بسحره ووعوده ومجازفاته ، فكان شغفه بالاستطلاع والإحاطة بالدنيا مستغرقاً كله أو جله في هذه الناحية ، وكان أمامه من العالم شيء يستوفيه ويستكمله ولا يزال له متعقباً متأثراً حتى ينتهي به إلى مداه

ولم يكن مجرد اتفاق ولا مصادفة أن تمت الكشوف الجغرافية وبدأت الكشوف النفسية في عصر واحد ، فقد فرغ الإنسان